

الباب الثالث

النقد تجاه الثقافة

الفصل الأول : شيوع البديع وظهور مذهب الصنعة

عمود الشعر عند النقاد العرب

الفصل الثاني : النقاد العرب ومذاهبهم

الفصل الثالث : شخصيات ناقدة

الفصل الأول

شيوع البديع وظهور مذهب الصنعة :

أول من ألف في البديع كتاباً عبد الله بن المعتز ، وكانت غايته منه الرد علي الشعوبية وبيان أن المحدثين من الشعراء لم ينشئوا البديع إنشاءً ، وإنما نموا صوراً منه وجدوها في كلام العرب وأشعارهم .
وبني ابن المعتز كتابه علي أبواب خمسة هي باب الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام علي ما تقدمها والمذهب الكلامي . ولما فرغ من بيان هذه الألوان تحدث عما سماه محاسن الكلام ورددها إلي أربعة عشر لوناً وهي الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج من معني إلي معني وتأکید المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف والهزل الذي يراد به الجد وحسن التضمين والتعريض والكناية وحسن التشبيه وحسن الابتداءات والإفراط في الصفة وإعنات الشاعر نفسه في القوافي وجاء بعده قدامة فأضاف إلي هذه الألوان ألواناً أخرى أهمها صحة الأقسام وصحة المقابلات وائتلاف اللفظ مع المعني وائتلاف القافية مع بقية البيت والتوشيح والإيغال .

وخلف من بعد قدامة وابن المعتز أبو هلال العسكري فأضاف ألواناً جديدة، ثم جاء من بعده ابن رشيق فبلغ بهذه الألوان نحو السبعين

وما زال المؤلفون في النقد والبيان يزيدون فيها ويضيفون حتي ألف أسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ كتابه " البديع في نقد الشعر " وقد جعله في خمسة وتسعين باباً وخلفه ابن أبي الإصبع المصري المتوفي سنة ٦٤٥ ونراه يؤلف في ألوان البديع كتابين هما " تحرير التعبير " و " بدائع القرآن " وعنده بلغت هذه الألوان مائة وخمسة وعشرين لوناً .

وهذه الكثرة من الألوان تحمل كثرة من المصطلحات والألقاب ، وهي كثرة متعبة لا للقارئ فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء المؤلفين الذين كدوا عقولهم وأجهدوها في وضع الأسماء والمصطلحات ، إذ أخذوا يحاولون التمييز بين صور التعبير ، وكلما رأوا صيغة جديدة سموها اسماً ، وكثيراً ما تتشابه الأسماء وصور التعبير التي تدل عليها . وتحولت المسألة إلي ما يشبه السباق ، فكل يؤلف في البديع ، وكل يحاول أن يضيف مصطلحاً أو لقباً ، وتتكاثر الألقاب والمصطلحات وتقفز من حين إلي حين قفزة واسعة ، إذ يسجل أحد المتسابقين رقماً عالياً .

وما تزال هذه القفزات والتسجيلات تتوالي حين يبلغ الرقم نحو مائة وأربعين ، ويتفنن المتسابقون في طريقة عرضهم لمبتكراتهم ، ولا نلبيث أن نجد صفى الدين الحلبي المتوفي سنة ٧٥٠ للهجرة يؤلف

قَصيدة في مديح الرسول تجمع ألوان البديع وتضم أنواعه ، وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية ومطلعها :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم

واقِر السلام علي عرب بذِي سلم

وكانت هذه أولي البديعيات ، وطريقته أن يجعل كل بيت فيه شاهداً علي لون أو نوع من أنواع البديع ، وكتب لها شرحاً يوضحها . وتعاقبت البديعيات أو هذه القصائد النبوية البديعية من بعده فألف تقي الدين بن حجة الحموي بديعية افتتحها بقوله :

لي في ابتداء مدحكم يا عرب ذي سلم

براعة تسهل الدمع في العلم

والتزم فيها وزن بديعية صفي الدين وهو البسيط ، كما التزم قافيها وأكثر من ذلك نراه يلتزم تسمية النوع البديعي الذي يشير إليه البيت .

وألف علي بديعية شرحاً طويلاً سماه " خزانة الأدب " أكثر فيه من الشواهد والأمثلة . وتوالت هذه البديعات ، وتوالت الشروح .

وواضح أن هذه البديعات لم يكن الغرض منها مدح الرسول - صلي الله عليه وسلم - وإنما كان الغرض أن تجمع كل أنواع البديع وفنونه في قصائد تعليمية تقصد إلي تعليم الناشئة صور البديع ومحسناته اللفظية والمعنوية ، وتأخذ القصيدة شكل متن موجز ، أو شكل

تلخيص مجمل ، وهو تلخيص فيه صعوبة وفيه ما يشبه
الألغاز ، ولذلك يعود الناظم فيشرحه حتي يفهم .
وعلي هذا النحو نصل في البديع إلي أبعد الاختصارات
والتلخيصات ، ثم نحتاج إلي الشروح المطولة ، لكي نطلع علي ما
يريد المختصرون والملخصون ، وقلمنا أفدنا من هذا أو ذاك
فائدة ، وكيف نفيد وقد اختلط المهم بغير المهم والبديع الحقيقي
بالمزيف ، فقد جعلوا كل صيغة في الأدب لوناً من ألوان
البديع ، ولم يميزوا بين المحسن وغير المحسن وما من شأنه أن
يضيف إلي التعبير جمالا وما لا يضيف . ومن هنا كنا نقرأ في هذه
البديعيات فنحس أنها شيء غث لا فائدة فيه ولا طائل تحته لكثرة ما
تحشد من مصطلحات فارغة لا تحوي أي حسن ولا أي جمال .

عمود الشعر عند نقاد العرب

كثيرا ما يتردد تعبير عمود الشعر عند نقاد العرب فيقولون عن شاعر إنه لم يفارق عمود الشعر بينما يصفون آخر بأنه فارق هذا العمود .

وذلك التعبير منهم يدل علي أنهم يقصدون بعمود الشعر تقاليد المتوارثة والمبادئ التي سبق بها الشعراء الأولون واقتفاها من جاء بعدهم ، حتى صارت سنة متبعة وعرفا متوارثا

ويدلنا علي أن المراد بعمود الشعر ما ذكرناه قول المرزقي : (..... الواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ، ليميز تلبد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم إقدام المزيفين علي ما زيفوه ويعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتي السمع علي الأبي الصعب) .^(١)

ومضي المرزوقي يبين هذه التقاليد التي يبني منها عمود الشعر فقال (إنهم كانوا يحاولون شرف المعني وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات - والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتنامها علي تخير من لذذ الوزن ومناسبة

^(١) مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٨٠ ٩٠ .

المستعار منه للمستعار له و ومشاكلة اللفظ للمعني وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها عيار ^(١)

ويعني المرزوقي بالعيار ما يعرض عليه كل واحد من هذه السبعة فيقبله أو يرفضه

فعيار المعني : أن يعرض علي العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فالعقل إذا هو الحكم الذي يفصل في صحة المعني وخطئه ، فإذا قبله العقل واقتنع به كان مقبولا ، وإلا نقص بمقدار ما فيه من باطل وخطأ ، والعقل الصحيح يحكم علي المعني بعد أن يعرضه علي واقع الحياة حيناً ، وعلي معارف العلم حيناً آخر .

وعيار اللفظ : الذوق المرهف الذي هذبته الرواية ، وصقلته الثقافة ، فعرف السلس والثقيل ، والمألوف والمهجور ، والدقيق في أداء المعني والبعيد الذي لم يوفق الشاعر في اختياره ليؤدي المعني الذي أراد .

وعيار الإصابة : في الوصف ما أوتيهِ الأديب من ذكاء وحسن تمييز فبهما يدرك ما هو أشد لصوقاً بالشئ ، فيكون من صفاته الأساسية ، وما لا يكون ذا لصوق وامتزاج به ، فلا يكون من الصفات الأساسية وليس المراد بالوصف هنا باب الوصف وحده ، ولكن الشعر كله

^(١) السابق ص ٩ .

وصف ، فالغزل وصف الحبيب والحب ، والرثاء وصف المرثي والآلام الناشئة عن موته والمدح وصف الممدوح ، وهكذا ، فالذكاء وحسن التمييز كفيلا بمعرفة صفات الشيء الجوهرية الحقيقية .

وعيار المقاربة في التشبيه ، النقطن لما بين الأشياء من صلوات وحسن تقدير هذه الصلوات حتى يوقع التشبيه بين أبرزها وأشدها وضوحاً ويتحقق ذلك عند المرزوقي إذا أوقع التشبيه بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له ، لأنه حينئذ يدل علي نفسه ، ويحميه من الغموض والالتباس ^(١)

وعيار التحام أجزاء النظم والتتامه علي تخير من لذيذ الوزن : الطبع واللسان ، فما لم يستقله الذوق من الأبنية ، ولم يحتبس اللسان في النطق به ، بل استمر فيه واستسهلاد ، بلا ملال ولا كلال ، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت ، والبيت كالكلمة ، لأن أجزاءه سليمة متقاربة وتخير لذيذ الوزن يطرب الذوق بحسن إيقاعه واعتدال نظمه ، كما يطرب الفهم بصواب تركيبه بل لا بأس من الالتجاء إلي الغناء لاختبار الشعر ، ومعرفة مدي جمال إيقاعه .

وعيار الاستعارة ، كعيار التشبيه : الفطنة وحسن التنبه ، وبما أنها

^(١) السابق نفسه .

منسبة علي التشبيه ، ينبغي أن يكون التشبيه في الأصل قريباً حتى يتناسب المشبه والمشبّه به ، ثم يحذف أحد الطرفين وعيار مشاكلة اللفظ للمعني وشدة اقتضائهما للقافية : الدربة الطويلة والمدارسة الدائمة فإذا حكما بأن اللفظ يؤدي المعني تمام الأداء ، ليس فيه جفوة ولا نبو ، ولا زيادة ولا قصور ، وكان اللفظ مقسوماً علي مقادير المعاني قد حمل الأخص للأخص والأخص للأخص فهو البرئ من العيب وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر ، يتم بها المعني ، ويستوفي بها كماله وإلا كانت قلقة في مقرها ، مجتلبة لمستغن عنها .

فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبني شعره عليها ، فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر مهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن .

ونستطيع أن نجمل ما فصله المرزوقي في وصف عمود الشعر ونري تلك الصفات منها ما يعود إلي اللفظ ، ومنها ما يعود إلي الأسلوب ومنها ما يعود إلي الخيال .

فالذي يتطلبه عمود الشعر في المعني أن يكون شريفاً صحيحاً مصيباً ، وفي اللفظ أن يكون جزلاً مشاكلاً للمعني المراد وفي الأسلوب أن يكون متلائماً موحد النسيج ، متخير الوزن ، يتطلب

لفظه ومعناه القافية ، يتم بها أداء المعني ، وفي الخيال قرب التشبيه ، ومناسبة المستعار منه المستعار له .

أما ما يحتاج إليه الأديب ليصل بأدبه إلي هذه الغاية المثلي في الشعر فموهبة فطرية عبر عنها المرزوقي بالطبع ، وذكاء يميز بين الأمور ويحسن تقديرها ، وذوق يدرك ما في الأوزان من جمال وعيب ، وثقافة أدبية واسعة تعتمد علي الرواية ، لتعرف المستعمل والمهممل والدقيق من الألفاظ ، والجافي النابي ، وعلي المدارس والاتصال بالنصوص الأدبية اتصال فهم وتدبر لمنهج الكلام ، حتي يعرف أسباب جماله وعلي طول الدربة والمرانة علي الانتاج وذلك كله تعبير عن النظرة العربية للشعر والشاعر .

وعلي هذا الأساس يعرف مدي التزام الشاعر عمود الشعر ، ومدي مفارقتة إياه فهذا الشاعر الذي لا يعني بالإصابة فيما يصف فينسب إلي الشئ ما ليس له ، ولا يعني بصحة المعني ولا بدقته (وينبغي أن أوجه النظر إلي أن المعني هنا يشمل العاطفة أيضاً وصحة المعني فيها معناه صدق الشعور بها) فهذا الشاعر الذي لا يعني بتصوير عاطفة صحيحة ، أو يتجه إلي الصنعة والزخرف المتكلف وإن مات المعني في يده وهذا الذي لا يعني بانتقاء ألفاظه بحيث تكون نبيلة نصا في المعني دقيقة في أدائه ومشاكلة له ولا يعني بأن يكون نسج قصيدته موحدا متلائما ، لا يرتفع حيناً وينحط حيناً آخر

ولا يعني بتخير الوزن وسواء أ جاء زحاف في وزنه أم لم
يجئ ، ارتكب ضرورة أم لم يرتكب ، غمض المعني أم
اتضح ، قرب التشبيه أم بعد ظهرت الاستعارة أم خفي فيها وجه
الشبه ، هذا الشاعر مفارق عمود الشعر ، بمقدار بعده عن هذه
الأصول تكون مفارقتة لهذا العمود .

وهؤلاء الشعراء الذين يغوصون علي المعاني ، ويريدون استخراج
غريبها ونادرها ، ولا يعنيهم أن توضع هذه المعاني في أي أسلوب
وفي أي عبارة ، مفارقون لعمود الشعر مبتعدون عن تقاليده .
وهؤلاء الذي يعنيهم أمر الجناس والمطابقة وفنون البديع أكثر مما
يعنيهم أمر المعني ووضوحه وصحته ، بل لا يباليون أن يغمض إذا
سلم لهم فن من فنون المحسنات البديعية هؤلاء كذلك مبتعدون عن
عمود الشعر وتقاليده .

والبحثري عند نقاد العرب ممن التزموا عمود الشعر ، ولم يفارقوه ،
بينما فارق أبو تمام هذا العمود في كثير من شعره الذي عني فيه
بأمر المحسنات وهكذا نستطيع أن نحكم علي المتكلف بأنه بعيد عن
عمود الشعر وتقاليده الصالحة .

الفصل الثاني : النقاد العرب ومذاهبهم

كان النقد في مبدأ الأمر أولياً فطرياً كما سبق أن ذكر ، لا يعتمد إلا علي الذوق الخالص ولا يسلك سبيل التحليل والتعليل فكان الرجل يستمع إلي قصيدة من القصائد ، أو إلي بيت أو أبيات منها فيتأثر بها فيصدر عليها حكماً عاماً بالجودة والاستحسان أو القبح والاستهجان ولا يزيد شيئاً علي ذلك وقد عرف هذا اللون من النقد بهذه الطريقة في العصر الجاهلي .

فإذا جاء العصر الإسلامي ظل النقد علي ما كان عليه ذاتياً تأثرياً يعتمد علي السليقة والفطرة ، فإذا مضينا مع الزمن وجدنا النقد يحاول أن يتجاوز هذه المرحلة التأثرية إلي مرحلة تعليلية تحمل أسباباً وعللاً للأحكام وبهذا الاتجاه بدأ النقد يضع قواعد وأصولاً لما يستحسن أو يستقبح من الآثار الأدبية .

بدأ النقد العربي يسلك هذا المنهج علي يد الناقد ابن سلام الجمحي إذا أخرج للمكتبة العربية كتابه القيم " طبقات فحول الشعراء " الذي ضمنه نظرات نقدية جديدة تدل علي بصر وبصيرة بالأثر الأدبي وبالنقد المبني علي ذلك الأثر .

وفي كتابه استعرض ابن سلام صورة النقد في عصري الجاهلية وصدر الإسلام وهي نقداً متعلقة باللغة والصياغة والجرس الموسيقي وذلك كالذي أخذوه علي النابغة الذبياني من أنه كان يقوي

في شعره ^(١) ومع أن ابن سلام اعتمد في تصنيفه علي شئ من المنهج التاريخي عندما صنف الشعراء إلي مجموعات جاهلية وإسلامية الخ فإنه يقرر ضرورة الخبرة والممارسة والتذوق الفني والمران وكل هذه تتعلق بالجوانب الفنية في النقد الأدبي .

يقول ابن سلام : (للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ومنها ما يتقنه اليد ، ومنها ما يتقنه العين ومنها ما يتقنه الأذن ومنها ما يتقنه اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة و ومن ذلك الجهيذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا وسم ولا صفة ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرفها بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها ^(٢) ومنها البصر بغريب النخل وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به) ^(٣)

ثم يخطو النقد خطوة أخرى إلي الأمام وذلك علي يد الناقد العالم (ابن قتيبة الدينوري) الذي حاول أن يضع قواعد وأصولا

^(١) أي تختلف حركة الروي في أبياته

^(٢) الجهيذة : نقد للزيوف والصحيح من الدنانير والدراهم ، البهرج : الردى ،

الستوق : الزائف ، المفرغ : المصمت الذي لا يسمع لرنينه صوت

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٦ ، ٧

لنقد الشعر فله نظرتة به في الحكم علي الشعراء فهو يري تقديم من يستحق التقديم وتأخير من يستحق التأخير فليس سبق الزمنى عنده موجباً للتقديم والتقدير كما أن التأخر في الزمن ليس موجباً للنكران والتحقير ، وهو بذلك يفصح عن منهجه الذي لا يقلد فيه أحدا فهو لا يجاري من سبقوه في استحسان من استحسنوه ، أو استقباح من استقبحوه يقول ابن قتيبة : (ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره و لا نظرت إلي المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه و لا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويرذل الشعر الرصين و لا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأي قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة علي زمن دون زمن و لا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله و لا حداثة سنه كما أن الردئ إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه و لا تقدمه ^(١) كما نراه يقسم الشعر إلي تقسيمات وهي عنده أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه وضرب حسن

(١) الشعر والشعراء : المقدمة ص ٢

لفظه وحلا وليس تحته طائل ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه
وضرب تأخر لفظه ومعناه ، ثم يضرب الأمثلة لكل نوع ويعلق
عليها وينقدها نقداً بعيداً عن التعليل .

- ويأتي بعده قدامة بن جعفر فيؤلف كتابه " نقد الشعر " الذي يبين
لنا فيه اتجاهه في النقد ولكنه اتجاه جديد علي النقد الأدبي فهو اتجاه
فلسفي منطقي علمي وهي محاولة لم نقدنا كثيراً في مجال النقد ،
وذلك أنه حاول أن يطبق علي الشعر ونقده هذه الأقيسة العقلية
المنطقية الجافة وكتابه " نقد الشعر " حوي ثلاثة أقسام :

الأول : تناول فيه تعريف الشعر وبيان حده ، وفصل القول في
عناصره الأربعة وهي اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعني
الثاني : فصل فيه قدامة وجوه الحسن في المعاني الشعرية
الثالث : فصل فيه عيوب المعاني .

وأخذ بعد ذلك في تقسيمات وتفرعات لكل قسم من هذه الأقسام .
وقدامة في منهجه هذا وفي تفصيلاته متأثر بأرسطو في حديثه عن
الشعر ومن خلاله يظهر لنا اطلاعه علي الفلسفة اليونانية التي
كانت قد ترجمت في هذا العصر و مما يؤخذ علي قدامة أنه
عد " التشبيه " غرضاً مستقلاً من أغراض الشعر ، والتشبيه إنما
يدخل في باب الوصف .

كما أنه حين عدد أغراضه الشعر اغفل أغراضاً معروفة لدى الشعراء وذلك كالفخر والعتاب والحكمة

وهما هو ذا الأمدي المتوفي سنة ٣٧١ هـ وقد أخرج كتابه " الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري " وسار فيه علي مراعاة القيم التعبيرية والمعنوية فقد تناول في نقده الألفاظ والمعاني وتحدث عما يستجد منها وما يستقبح ويعاب .

ثم يتحدث عن الشعر فيذكر أن له دعائم أربع هي : جودة الآلة وإصابة الغرض وصحة التأليف وتمام الصنعة فإذا استوفي الشاعر هذه الدعائم وأضاف إليها معني لطيفا مستغربا فذلك مما يزيد في حسن صنعته وتمام جودتها .

ثم عقد فصلا نقديا بين فيه الحاجة إلي الدربة في فن النقد وقرر أن العلم بالشعر لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولا يتعاطاه من ليس من أهله ، وألا يتعرض له إلا من عرف بكثرة النظر في الشعر وطوله الممارسة والارتياض .

ثم يتعرض الأمدي في كتابه إلي الحديث عن السرقات الشعرية والسابق في المعاني والتعبيرات واللاحق منها وهو خلال حديثه عنها وعن الموازنة بين الشعراء كان لا يتوسع في التعليل وإنما هي تعليقات مقتضبة لا توضح أسبابا لا للحسن ولا للقبح وهو بذلك قد ألم ببعض المباحث الداخلة في إطار المنهج التاريخي .

ثم يأتي القاضي علي بن عبد العزيز الجرحاني و علي يديه يخطو النقد الأدبي خطوة واسعة علي طريق المنهج الفني ، فله في هذا المجال نظرات نقدية جيدة ، وعنده أن الشعر صناعة وأن هذه الصناعة لها أهلها الذين يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها

ويري كذلك أن الشيء قد يكون مبتقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ويكون جيدا وثيقا ولا يكون لطيفا رشيقا ومن ثم ينبغي الرجوع في شأن هذه الصناعة إلي أهلها الخبيرين بها المتمرسين بطول الدربة ودائم الممارسة .

وهو إذا وازن بين بعض المعاني أو التعبيرات تجده يبيد أسبابا وعللا لما يستحسن أو يستقبح .

ونري كذلك - القاضي الجرحاني ينعي علي من يلهج بعيب المتأخرين وأن أحدهم قد ينشد البيت فيستحسنه ويستجده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله .

ويأتي الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ فيقوم بذلك الدور الذي يجعله بحق الناقد الفذ بين النقاد والبلاغيين ، فقد كان عمله يختلف عن عمل من سبقوه ، ذلك أنه حاول أن يضع قواعد وأصولا فنية للجمال الفني كما حاول أن يضع قواعد نفسية

كما أنه حين عدد أغراضه الشعر اغفل أغراضاً معروفة لدى الشعراء وذلك كالفخر والعتاب والحكمة

وها هو ذا الآمدي المتوفي سنة ٣٧١ هـ وقد أخرج كتابه " الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري " وسار فيه علي مراعاة القيم التعبيرية والمعنوية فقد تناول في نقده الألفاظ والمعاني وتحدث عما يستجد منها وما يستقبح ويعاب .

ثم يتحدث عن الشعر فيذكر أن له دعائم أربع هي : جودة الآلة وإصابة الغرض وصحة التأليف وتمام الصنعة فإذا استوفي الشاعر هذه الدعائم وأضاف إليها معني لطيفا مستغربا فذلك مما يزيد في حسن صنعته وتمام جودتها .

ثم عقد فصلا نقديا بين فيه الحاجة إلي الدربة في فن النقد وقرر أن العلم بالشعر لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولا يتعاطاه من ليس من أهله ، وألا يتعرض له إلا من عرف بكثرة النظر في الشعر وطوله الممارسة والارتياض .

ثم يتعرض الآمدي في كتابه إلي الحديث عن السرقات الشعرية والسابق في المعاني والتعبيرات واللاحق منها وهو خلال حديثه عنها وعن الموازنة بين الشعراء كان لا يتوسع في التعليل وإنما هي تعليقات مقتضبة لا توضح أسبابا لا للحسن ولا للقبح وهو بذلك قد ألم ببعض المباحث الداخلة في إطار المنهج التاريخي .

ثم يأتي القاضي علي بن عبد العزيز الجرحاني و علي يديه يخطو النقد الأدبي خطوة واسعة علي طريق المنهج الفني ، فله في هذا المجال نظرات نقدية جيدة ، وعنده أن الشعر صناعة وأن هذه الصناعة لها أهلها الذين يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها

ويري كذلك أن الشيء قد يكون متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ويكون جيدا وثيقا ولا يكون لطيفا رشيقا ومن ثم ينبغي الرجوع في شأن هذه الصناعة إلي أهلها الخبيرين بها المتمرسين بطول الدربة ودائم الممارسة .

وهو إذا وزن بين بعض المعاني أو التعبيرات تجده يبدي أسبابا وعللا لما يستحسن أو يستقبح .

ونري كذلك - القاضي الجرحاني ينعي علي من يلهج بعيب المتأخرين وأن أحدهم قد ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله .

ويأتي الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ هـ فيقوم بذلك الدور الذي يجعله بحق الناقد الفذ بين النقاد والبلاغيين ، فقد كان عمله يختلف عن عمل من سبقوه ، ذلك أنه حاول أن يضع قواعد وأصولا فنية للجمال الفني كما حاول أن يضع قواعد نفسية

الفصل الثالث : شخصيات ناقدة

من النقاد القدامى

(١) ابن سلام الجمحي :

هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري ، من أعلام الأدب والنقد والرواية في القرن الثالث الهجري .

ولد ابن سلام الجمحي في البصرة سنة ١٣٩ هـ ، ونشأ في بيت علم وأدب ، وتلمذ علي أبيه وغيره من أعلام البصرة ، وفي مقدمتهم : أبو عمرو بن العلاء رائد مدرسة البصرة في الرواية ، وكان من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، وكان من أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب .

وتلمذ كذلك ابن سلام علي الأصمعي الذي أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها وأخبارها ، وقالوا عنه إنه ثقة عدل .

كما تلمذ ابن سلام علي يونس بن حبيب النحوي المشهور ، وغيرهم ما يربو علي المائة ، وقد ظل ابن سلام يطلب العلم في مظانه وكذلك الأدب حتي تم له ذلك وأمضي حياته في خدمته ، وقد توفي في بغداد سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٣٢ عن عمر فاق التسعين عاماً .

كان ابن سلام متنوع المعارف واسع العلوم ، وكتبه التي ألفها توضح ذلك بجلاء فقد ألف في الشعر ، وفي الشعراء ، وفي القرآن وفي الأخبار الخ

ومن هذه الكتب :

طبقات فحول الشعراء ، غريب القرآن ، بيوتات العرب ، وكتاب في الملح والأخبار والأشعار ، وكتاب في طبقات الشعر .
- ويعد كتاب " طبقات فحول الشعراء " فتحاً جديداً في مجال الأدب والرواية والنقد ، فقد أفاد مؤلفه من جهود معاصريه وآرائهم وغير فيها وبذل ومحص وهذب وأضاف إليها ما يتعلق بدراسة الشعر ونقده .

- كان ابن سلام يتمتع بروح علمية كبيرة تظهر وتتضح لنا قسماها من خلال دراسة كتابه " طبقات فحول الشعراء " فقد أثار في هذا الكتاب العديد من المسائل والقضايا التي عالجها بدقة وبقظة وإحاطة بما يدل علي تأصل الروح العلمية عنده .

- ومقدمة الكتاب حافلة بمسائل النقد وقضاياها ، فقد ذهب ابن سلام أن الشعر صناعة وثقافة ، وأن الذي يعرفه ويميز بينه وما يحتويه من جوده وإحسان ، أو قبح واستهجان ، هم نقاده الخبيرون به القديرون علي تقويمه وإصدار الحكم عليه .^(١)

(١) طبقات فحول الشعراء - السفر الأول ص ٥ ، مطبعة المنني .

- كما عرض لنا ألوانا من جهل للعلماء بالنقد ومعرفة الشعر .
ونذكر من هؤلاء ابن اسحاق الذي روي شعراً علي السنة رجال لم
يقولوا الشعر قط كما روي شعراً علي لسان عاد وثمود ، مع أن كل
الدلائل تبين لنا أن هذه الأمم البائدة لم يبق أحد يستطيع أن يروي لها
أو عنها .

- كما يذكر لنا ابن سلام في مقدمة كتابه ، ضياع الكثير من
نصوص الشعر الجاهلي ^(١) وذلك لعدم انتشار التدوين والكتابة
والتقييد ودلل علي ذلك بذهاب الكثير من شعر طرفة بن العبد ،
وعبيد بن الأبرص ، وهما من أقدم الشعراء .

كما يذكر أنه لم يكن للعرب من الشعر قبل ذلك إلا الأبيات يقولها
الرجل في حاجته ، وأن القصائد إنما قصدت ، وطول الشعر علي
عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وأول من قصد القصائد هو
المهلهل بن ربيعة التغلبي ^(٢) .

- ويعرض ابن سلام لتنتقل الشعر في العرب ، وأنه كان في ربيعة ،
ثم تحول في قيس ، ثم آل تميم ، ويذكر أن حماداً الراوية كان أول
من جمع أشعار العرب وروي أحاديثها .

(١) السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) السابق ص ٣٩ .

وقد عالج كتاب ابن سلام عدداً من القضايا والمسائل النقدية منها :

(١) القضية الأولى :

تحقيق النصوص والتحقيق من سلامة نسبتها إلي أصحابها :

وهي من أهم القضايا التي أثارها المؤلف ، وهي قضية الانتحال ، أو قضية الشعر الموضوع ومحاولة تحقيق النصوص وتوثيقها ، وتصحيح نسبتها إلي أصحابها ، وقد اتخذ ابن سلام لدارسة الشعر ونقده والحكم عليه منهجاً جديداً وهو أن أول ما يجب علي الناقد أو الدارس فعله تحقيق النص الأدبي ونسبته الصحيحة إلي قائله ، وذلك قبل أن يمضي في عمله في التعامل مع النص ، وإلا ذهب جهده هباء و صار منهجه غير قويم ولا سليم .

وقد أرجع بن سلام قضية انتحال الشعر وردها إلي عدة عوامل أهمها :

١- العامل الأول : القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتزيد في مناقبها وذلك لأنهم استقلوا شعر شعرائهم ، وما ضاع منه في الوقائع والأيام فقالوا شعراً علي ألسنة الشعراء ونسبوه إليهم مع أنهم لم ينطقوا به .

٢- العامل الثاني : الرواة الوضاعون غير الموثوق بهم الذين كانوا ينحلون شعر الرجل لغيره وكان من أشهر هؤلاء الرواة الذين جمعوا أشعار العرب وساقوا أيامها " حماد عجرد " المعروف بحماد الراوية

وكان متهماً كثير الوضع ولا يوثق بما يرويه ، فكان ينظم علي لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به وكثر منه ذلك حتي عرف به واشتهر .

٣- العامل الثالث : أن بعض من دونوا هذا الشعر فيما بعد كانوا من كتاب السير كمحمد بن إسحاق الذي نسب بعض الأشعار إلي عاد وثمود من أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ولم تكن له العربية لغة يقول ابن سلام : (وكان ممن أفسد الشعر وهجته وحمل كل غث منه ابن إسحاق بن يسار وكان من علماء الناس بالسير ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتي به فأحمله ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، ثم جاوز ذلك إلي عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر)

٤- العامل الرابع : أن كثيراً من الشعر ضاع بعد مجئ الإسلام ، حيث انصرف الناس عن روايته وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، فلما كثر الإسلام واطمأنت العرب بالأمن راجعوا رواية الشعر

وقد قام ابن سلام بهذا الجهد ، فتعقب الشعر وتعرض للموضوع منه والمنحل ، وناقش ذلك مناقشة علمية ، وأخذ يطعن فيه ، وأبطل نسبته إلي من نسب إليهم مستعيناً في ذلك بكافة الأدلة والبراهين .

(٢) القضية الثانية :

قدرة الناقد علي تميز جيد الشعر من رديئه ، وعدته في ذلك وهي من القضايا التي شغل بها ابن سلام ، وعالجها في كتابه ، فقد وجدناه يقرر أن الشعر صناعة يعرفها أهل البصر بالشعر ، وأن الخبرة الفنية والثقافة الأدبية والإلمام بفنون الشعر أمور ينبغي أن تتوافر في الناقد الأدبي .

وتتحقق هذه الأمور تبعاً للتجربة والممارسة الدائمة وكثرة المحفوظ والمدرّوس من الشعر إذن فهو يرفض الاعتماد علي الذوق وحده ، ويرى أنه ليس كل فرد أهلاً للتمييز والنقد والحكم .

كما يرى ابن سلام أن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، وينبغي علينا أن نترك الحكم للشعر أو عليه للخبير المتمرس ينقد ويفسر ويحلل ويميز جيده من رديئه .

قال ابن سلام : (الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ، كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما يتقنه الإنسان يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له ، بلا صفة ينتهي إليها ، ولا علم يوقف عليه ، وإن كثرة المدارس لتعدي علي العلم ، فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به) .

القضية الثالثة :

تصنيف الشعراء في طبقات

في هذه القضية يتحدث ابن سلام عن الشعراء ويصنفهم في طبقات :
فهناك طبقات الجاهليين وهناك طبقات الإسلاميين وصنف الجاهليين
في عشر طبقات منهم أهل الوبر وأهل المدر ومنهم أهل البدو
والحضر .

كما صنف الإسلاميين في عشر طبقات أيضا منهم طبقة فحول
الإسلام الخ .

وهو في تصنيفه للجاهليين نراه يقرر أثر البيئة وأثر الزمان في
تكوين الملكات الشعرية ، كما أخذ يفاضل بين الشعراء علي أسس
منها : كثرة النتاج الشعري وجودته وتعدد أغراضه والزمان
والمكان ^(١)

كما نراه يعلل قلة الشعر في مكان ، وكثرته في آخر تعليلا مقبولا
إذا يقول : (وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر
بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج
بالمدينة ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم ، والذي قلل شعر قريش أنه
لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا) ^(٢)

^(١) نصوص نقدية / محمد السعدي فرهود ص ٦٠٧ .

^(٢) السابق ص ٢١٧ .

وقد أورد ابن سلام في كتابه الكثير من الآراء والأحكام المختلفة ؛
ونراه يذهب إلي أن امرأ القيس أسبق العرب إلي أشياء ابتدعها
استحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء منها استيقاف صحبه ،
والبكاء علي الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ وإجادة
التشبيه (^(١))

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٤٦ .

- كتاب المعارف : وهو كتاب في التاريخ تحدث فيه عن تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام والطوفان ، وسير الأنبياء والرسل ، كما تحدث عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) وصحابته وتاريخ الخلفاء والدولة الأموية والفرق التي قامت في عهدها .

- كتاب أدب الكاتب : وقد دفعه إلي تأليف هذا الكتاب ما لاحظته من أن أغلب الأدباء والكتاب في عصره قد ابتعدوا عن اللغة العربية الأصلية ، فهو يحاول - كما مر في مقدمة الكتاب - أن يقوم السنة الكتاب وأيديهم في رسم الكلمات ، وقد جعل هذا الكتاب أربعة أقسام .

الأول : في المعرفة وتوجيه الألفاظ والعبارات إلي استعمالها الصحيح .

الثاني : في إقامة حروف " الهجاء " وما يتصل به من تصويب الكلمة .

الثالث : في تقويم اللسان .

الرابع : في أبنية الأفعال والأسماء ومعانيها .

- كتاب الشعر والشعراء : ويتكون هذا الكتاب من قسمين رئيسيين :

١) القسم الأول : المقدمة وفيها يتحدث عن الشعر وأغراضه وأضرابه وألفاظه وقواعد نقده ، وقد أطل ابن قتيبة في هذه المقدمة

بما لم نعهده في مقدمات الكتب ، وهي تمثل مذهب ابن قتيبة واتجاهه في النقد

(٢) القسم الثاني : تحدث فيه عن تراجم الشعراء ، وقد ترجم لعدد من الشعراء منذ العصر الجاهلي حتي العصر العباسي الأول .
وقد اشتملت مقدمة هذا الكتاب علي العديد من الآراء التي كان لها أثرها وخطرها في النقد الأدبي ، ومن تلك الآراء ما يلي :
أولاً : اعتمد ابن قتيبة قياساً للمفاضلة بين الشعراء والحكم عليهم هو جودة الشعر بصرف النظر عن كون الشاعر قديماً أو حديثاً فهو يرفض التقليل من شأن الشاعر المحدث لحدثه وكذلك يرفض تفضيل الشاعر لقدمه .

ويصدر ابن قتيبة في ذلك عن وجهة نظر مستقلة ، لم تتأثر بما عرف عن النقاد من تفضيل القديم لقدمه والزراية بالحديث لحدثه .
يقول الدكتور / مندور :

(الواقع أن ابن قتيبة كان رجلاً مستقلاً الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلي المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره فهو لا يأخذ بفكرة الطبقات كما أخذ ابن سلام وهذا واضح منذ الصفحات الأولى من كتابه ولم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بمقاييسه كمبدأ الكم مثلاً ، فهو يقول : (ولا أحسب أحداً من أهل التمييز

- كتاب المعارف : وهو كتاب في التاريخ تحدث فيه عن تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام والطوفان ، وسير الأنبياء والرسل ، كما تحدث عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) وصحابته وتاريخ الخلفاء والدولة الأموية والفرق التي قامت في عهدها .

- كتاب أدب الكاتب : وقد دفعه إلي تأليف هذا الكتاب ما لاحظته من أن أغلب الأدباء والكتاب في عصره قد ابتعدوا عن اللغة العربية الأصلية ، فهو يحاول - كما مر في مقدمة الكتاب - أن يقوم السنة الكتاب وأيديهم في رسم الكلمات ، وقد جعل هذا الكتاب أربعة أقسام .

الأول : في المعرفة وتوجيه الألفاظ والعبارات إلي استعمالها الصحيح .

الثاني : في إقامة حروف " الهجاء " وما يتصل به من تصويب الكلمة .

الثالث : في تقويم اللسان .

الرابع : في أبنية الأفعال والأسماء ومعانيها .

- كتاب الشعر والشعراء : ويتكون هذا الكتاب من قسمين رئيسيين :

(١) القسم الأول : المقدمة وفيها يتحدث عن الشعر وأغراضه وأضرابه وألفاظه وقواعد نقده ، وقد أطل ابن قتيبة في هذه المقدمة

بما لم نعهده في مقدمات الكتب ، وهي تمثل مذهب ابن قتيبة واتجاهه في النقد

(٢) القسم الثاني : تحدث فيه عن تراجم الشعراء ، وقد ترجم لعدد من الشعراء منذ العصر الجاهلي حتي العصر العباسي الأول . وقد اشتملت مقدمة هذا الكتاب علي العديد من الآراء التي كان لها أثرها وخطرها في النقد الأدبي ، ومن تلك الآراء ما يلي :

أولاً : اعتمد ابن قتيبة قياساً للمفاضلة بين الشعراء والحكم عليهم هو جودة الشعر بصرف النظر عن كون الشاعر قديماً أو حديثاً فهو يرفض التقليل من شأن الشاعر المحدث لحدثه وحدثه وكذلك يرفض تفضيل الشاعر لقدمه .

ويصدر ابن قتيبة في ذلك عن وجهة نظر مستقلة ، لم تتأثر بما عرف عن النقاد من تفضيل القديم لقدمه والزراية بالحديث لحدثه . يقول الدكتور / مندور :

(الواقع أن ابن قتيبة كان رجلاً مستقلاً الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلي المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره فهو لا يأخذ بفكرة الطبقات كما أخذ ابن سلام وهذا واضح منذ الصفحات الأولى من كتابه ولم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بمقاييسه كمبدأ الكم مثلاً ، فهو يقول : (ولا أحسب أحداً من أهل التمييز

والنظر نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المكثرين علي أحد إلا بأن يري الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره (١) وهذا تفكير سليم ونظر صائب ولكن ثورة ابن قتيبة علي المقلدين من أنصار القديم وأخذه برأيه هو مستقلاً به ، إنما كانت ثورة صادرة عن نظر فلسفي أكثر من صدورها عن حكم استقراه من طبيعة الشعر القديم والحديث ونسبة الجودة في كل منهما أو قر بهما من مثل أعلي في الشعر فهو يقول : (ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلي المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلي المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل بعين العدل علي الفريقين ، وأعطيت كلا حظّه ووفرت عليه حقه ، فإنني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأي قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة علي زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجياً في أوله فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء

(١) الشعر والشعراء ص ١٩ .

يقول : (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتي لقد هممت بروايته) ثم صار هؤلاء قديما عندما بعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هيثم وأشباههم فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولاحدائة سنه ، كما أن الردئ إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه^(١).
ثانياً : الطبع والتكلف في الشعر وتحدث فيه ابن قتيبة عن الشاعر المطبوع والشاعر المصنوع ، وعنده أن التكلف وليس الصنعة هو المقابل للطبع ، واستعماله لهذه المقابلة دون المشهور بين النقاد أن يقولوا " الطبع والصنعة " يكشف عن ذكائه وفطنته ودقة اختيار الكلمات .^(٢)

يقول ابن قتيبة : (ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر علي القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت علي شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر^(٣) والمتكلف هو الذي قوم شعره بالنفاق ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر

(١) النقد المنهجي عند العرب / د محمد مندور ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) نصوص نقدية / محمد السعدي فرهود ص ٢٦ .

(٣) التزحر : إخراج الصوت أو النفس مصحوباً بأنين عند وقوع شدة أو عمل .

كزهير والخطيئة ، وكان الأصمعي يقول : زهير والخطيئة وأمثالهما عبید الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الخطيئة يقول : " خير الحولي المنقح المحك " (١)

ويقول بعد ذلك : " التكلف في الشعر أيضا أن نري البيت فيه مقروناً بغير جاره ومضموناً إلي غير لفظه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : ولم ذلك ؟ قال لأنني أقول البيت وأخاه ولأنك تقول البيت وابن عمه "

ثالثاً : علل ابن قتيبة لبدء الشعراء قصائدهم بالغزل والوقوف علي الأطلال وذكر الديار والدمن والآثار تعليلاً مقبولاً إذ بني ذلك علي أساس نفسي يقول : (سمعت أهل الأدب يذكرون أن مقصد القصيد ، إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ثم وصل ذلك بالنسيب فكشا شدة الوجد ، وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستعدي إصغاء الأسماع ، لأن النسيب قريب من النفوس لانط بالقلوب ، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا استوثق من الإصغاء إليه

(١) الشعر والشعراء ص ١٢ .

والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره وشكا النصب
والسهر وسري الليل وحر الهجيرة وإنضاء الراحلة والبعر ، فلما
علم أنه أوجب علي صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح
فبعثه علي المكافأة وهزه للسماح وفضله علي الأشياء)

رابعاً : قسم ابن قتيبة الشعر أربعة أضرب

(١) ضرب حسن لفظه وجاد معناه .

(٢) ضرب حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد وراءه فائدة .

(٣) ضرب حسن معناه ، وقصرت ألفاظه عنه .

(٤) ضرب تأخر لفظه ومعناه .

مثل : للنوع الأول بقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلي قليل تقنع

وللنوع الثاني ، بقول الشاعر :

ولما قضينا من مني كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح

شدت علي حذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائج

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ومثل للنوع الثالث بقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم نفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

والنوع الرابع بقول الخليل بن أحمد :

فطر بدائك أوقع	إن الخليط تصدع
حور المدامع أربع	لولا جوار حسان
ء والرياب وبوزع	أم البنين وأسما
إذا بدالك أودع	لقلت للراحل : ارحل

وتقسيم الشعر بهذه الطريقة هو تقسيم فلسفي منطقي علمي ولا ينبغي أن يخضع الشعر ونقده للفلسفة أو المنطق أو للتقسيمات الرياضية لأن هذه التقسيمات تخرج بالأدب عن كونه فناً إنسانياً يتغني بالمشاعر عماده الذوق والإحساس إلي حسابات وتقنيات علمية تبعد به عن مجال الانفعال والوجدان .

ولذلك يخرج ابن قتيبة عن هذا التقسيم الرباعي السابق إلي القول بأن الجمال في الشعر الذي يدعو إلي اختياره وتفضيله وحفظه لا يعود إلي ما فيه من جودة للفظ والمعني فقط ، إنما إلي أمور أخرى ردها إلي إصابة التشبيه ، أو خفة الروي أو غرابة المعني طرافته أو نبيل الشاعر القائل ومنزلته .

وأخيراً عن ابن سلام وابن قتيبة وغيرهما يقول الدكتور / محمد مندور : (كانوا مؤرخي أدب أكثر منهم نقاداً وهم إن عرضوا لبعض المسائل الأدبية والمقاييس العامة لم يكن في نظرهم استقصاء

ولا دراسة للنصوص والنقد كما قلنا ليس تلك التعميمات التي لا
طائل تحتها ، وإنما هو تحليل النصوص والتمييز بين الأساليب (١)

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٤٩ والناشر نهضة مصر .

(٣) قدامة بن جعفر

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، ولد في بغداد سنة ٢٧٥ هـ — ونشأ في بيت علم وأدب إذ كان والده من كتاب الدولة العباسية وكان والده يدين بالنصرانية في حين أسلم ابنه قدامة علي يد الخليفة العباسي المكتفي بالله ، وقد هيا له استعداده في صناعة الكتابة واتصاله بالخليفة الاتحاق بديوان الخلافة في عاصمة الدولة في بغداد ، وصار أحد كتاب الديوان ، الذين يشار إليهم بالبنان ، وتوفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ وقد ترك قدامة مصنفات عدة تشهد له بالعلم والفضل والبراعة عددها ابن النديم في كتابه " الفهرست " من تلك المصنفات :

كتاب نقد الشعر - كتاب الخراج - كتاب صناعة الكتابة
كتاب درياق الفكر - كتاب السياسة - كتاب صناعة الجدل
كتاب الرد علي ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام - كتاب نزهة
القلوب - كتاب زاد المسافرين .

وله كتاب طبع في القاهرة باسم " جواهر الألفاظ " سنة ١٩٣٢ ،
واسمه الأصلي " الألفاظ "

وقد فصل قدامة في كتابه " نقد الشعر " مذهبه النقدي

وطريقته في هذا الفن وهي طريقة ظهر فيها أثر تشبعه بالمنطق

والفلسفة ، فقد قسم كتابه إلى ثلاثة فصول :

الأول : يعرف فيه الشعر ويرسم خطة الكتاب .

الثاني : يذكر فيه محسنات الشعر في مفرداته ومركباته .

الثالث : يذكر فيه عيوب الشعر في مفرداته ومركباته .

وفي القسم الأول يتناول قدامة تعريف الشعر فيقول : إنه قول

موزون مقفي يدل علي معني .

ثم يضع المؤلف " قدامة " خطة الكتاب فيقول إن عناصر الشعر

أربعة :

١- اللفظ ٢- الوزن ٣- القافية ٤- المعني

وهذا كله موجود في تعريفه للشعر ، فالقول هو اللفظ ، والموزون

هو الوزن ، والمقفي هو القافية ، والదال علي معني هو المعني ثم

يأخذ في بيان صفات هذه العناصر فيبدأ بالأربعة المفردات

(١) فنعت اللفظ بأن يكون سهل المخرج من مواضعها ، عليه رونق

الفصاحة مع الخلو من البشاعة .

(٢) ونعت الوزن بأن يكون سهل العروض .

(٣) ونعت القوافي بأن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج .

(٤) وأخيرا ينتهي إلي المعاني ، وهنا يري جودة المعني في أن يكون

موجها للغرض المقصود غير عاد عن الأمر المطلوب .

ولما كانت المعاني لا عداد لها فإن قدامة يردها كلها إلي المديح والهجاء ، والنسيب والمراثي ، والوصف والتشبيه .

- ثم يأخذ عن الحديث عن هذه الأغراض المختلفة فيتحدث عن المدح مجيزاً فيه المبالغة مؤكداً أنها من جمال الشعر ، ويرجع المدح إلي الإشادة بصفات أربع هي :

العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة ، ولكل من هذه أقسام فمن أقسام العقل : ثقافة المعرفة ، والحياء والبيان والسياسة و الكفاية والصدع بالحجة والعلم ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري مجراه ومن أقسام العفة ، القناعة وقلة الشره ، وطهارة الإزار وغير ذلك مما يجري مجراه .

ومن أقسام الشجاعة : الحماية والدفاع والأخذ بالثأر الخ ومن أقسام العدل والسماحة ومن أنواعها التبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف وما جانس ذلك .

ثم ينتقل من المدح إلي الهجاء ، ثم إلي الرثاء ، ثم يتحدث عن التشبيه ثم الوصف في تقسيمات كثيرة مملّة سمجة فلسفية أكثر منها نقدية وبعد أن يفرغ من الكلام علي المفردات يأخذ في الحديث عن المركبات وهي :

(١) انتلاف اللفظ مع المعني

(٢) انتلاف اللفظ مع الوزن

(٣) انتلاف المعني مع الوزن

(٤) انتلاف المعني مع القافية

وقبل أن ينتقل إلي الحديث عن المركبات الأربع السابقة يورد ما يعم

جميع المعاني الشعرية من محسنات وهو يحصيها في سبعة أوجه

(١) التقسيم (٢) صحة المقابلة (٣) صحة التفسير (٤) التتميم

(٥) المبالغة (٦) التكافؤ (٧) الالتفات..

ثم إذا فرغ من ذكر محاسن المفردات والمركبات يأخذ في ذكر

معائب كل فيذكر عيوب اللفظ والوزن والقافية والمعاني

بأنواعها ، ثم يفصل بين المفردات والمركبات بذكر العيوب العامة

للمعاني ... الخ .

ويبدو أن قدامة لم ينل إعجاب كثير من النقاد نظراً لطريقته المنطقية

الفلسفية في تقسيمات الأشياء ولتأثره الشديد بالفلاسفة من أمثال

أرسطو ولنظرتة الضيقة في معالجة الأشياء كل بمفرده لا معالجة

الأشياء كوحدة .

وعنه يقول د/ مندور : (أما قدامة فعقليته شكلية صرفة ، وهو لا

يبدأ بالنظر في الشعر بل يكون أولاً هيكلًا لدارسته ويحدد تقاسيمه أو

إن شئت فقل إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب ، ثم يأخذ في

ملء أدراجها ^(١) ثم يقول عنه بعد التقسيمات الكثيرة والتفريعات

(١) النقد المهجي عند العرب ص ٦٨ .

الأكثر : (وفي هذا الكلام الطويل الممل ما يدل علي طريقة قدامة
في نقد الشعر وبعده عما ادعاه فهذه فلسفة أرسطاليسية ومزيج من
المنطق والأخلاق المعروفة عند المعلم الأول وإذن فمحاولة
قدامة ظلت شكاية عميقة ، وهي لم تدخل يوماً ما في تيار النقد
العربي ولئن كان النقاد لم يجهلوه بدليل ورود اسمه غير مرة في
كتبهم ، فإنهم لم يكادوا يتأثرون به ، إنما تأثروا بكتاب البديع لابن
المعتز (١)

(١) السابق ص ٧٠ وما بعدها

(٤) الأمدي

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي ، ولد في البصرة ونشأ بها ، وقصد بغداد وهو في سن الشباب ، اختلف إلي مجالس العلماء يتلقي عنهم فنون العلم في اللغة والنحو والأدب وغير ذلك حتى حصل علوم زمانه وتتلذذ علي الأخفش والزجاج وابن السراج وابن دريد ونفطويه ، وحين تمت له ملكة البيان التحق بكتابة الدواوين فكتب في بغداد لهارون بن محمد الضبي ثم عاد بعد حين إلي البصرة حيث كتب لأحمد بن الحسن بن المثنى ، ولأخيه طلحة ابن الحسن ثم عمل كاتباً للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد الهاشمي ولأخيه القاضي أبي الحسن بن عبد الواحد واشتهر بذلك حتي لقب " كاتب بني عبد الواحد "

برزت مكانة الأمدي في ميدان الأدب وطارت شهرته فيه حتى انتهت إليه رواية الشعر والأخبار في آخر عمره وقد ألف كتباً كثيرة في اللغة والأدب والنقد وكان فوق ذلك شاعراً مجيداً رويت له مقطوعات شعرية كثيرة وكان حسن الطبع جيد الصنعة وكان عالماً فاضلاً ولكنه كان متمماً وقد لزم بيته في آخر أيامه حتي توفي بالبصرة ٣٧٠ هـ أو ٣٧١ هـ

وللآمدي كتب كثيرة في الأدب واللغة والنقد منها :

- المختلف والمؤلف في أسماء الشعراء
- كتاب فعلت وأفعلت ، ولم يصنف مثل هذا الكتاب
- كتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ
- كتاب تفضيل شعر امرئ القيس علي شعر الجاهليين
- كتاب نثر المنظوم
- كتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في " نقد الشعر "
- كتاب معاني شعر البحري
- كتاب الرد علي ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام
- كتاب الأضداد
- ديوان شعر يقع في حوالي مائة ورقة
- الموازنة بين الطائيين " أبي تمام والبحري "

وهذه الكتب علي كثرتها لم يطبع منها إلا كتابان هما المختلف والمؤلف من أسماء الشعراء وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحري وهذا الأخير يشهد للآمدي بسعة واستقصاء اطلاعه علي دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام وكذلك دواوين الشعراء المحدثين كما يشهد له بسعة اطلاعه علي آراء من سبقوه من أعلام اللغة والأدب كابن سلام الجمحي وأبي عبيدة وابن المعتز ، وقدامه

وبشر بن تميم وابن أبي طاهر ومحمد بن العلاء السجستاني وغيرهم .

وقسم الأمدي كتابه " الموازنة " إلى خمسة أقسام كل قسم يسمى جزءاً يقول د / مندور في الفرق بين الأمدي ومن سبقوه كابن سلام وغيره من حيث المذهب : (وأما الأمدي فوجهته وجهة أخرى فهو يبدأ " الموازنة " بين البحتري وأبي تمام بأن يورد حجج أنصار كل شاعر وأسباب تفضيلهم له ، ثم يأخذ في دراسة سرقات أبي تمام وأخطائه وعيوبه البلاغية ويفعل مثل ذلك مع البحتري مورداً سرقاته خصوصاً سرقاته من أبي تمام ثم أخطاءه وعيوبه ، أخيراً ينتهي إلى الموازنة التفصيلية بين ما قاله كل منهما في كل معني من معاني الشعر) .^(١)

أذن من خلال نص د/ مندور تكون أجزاء الكتاب كالآتي :

الجزء الأول : يذكر فيه الأمدي آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحتري ويستقصي رأي المتعصبين لهذا أو ذاك ثم يحصي سرقات أبي تمام الشعرية

والجزء الثاني : يذكر فيه معانيهما في كل معني شعري من المعاني والألفاظ والأساليب .

^(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٩٩ .

والجزء الثالث : يتناول فيه قبح استعارات أبي تمام ومستهجن جناسه ومستكره طباقه ^(١) وما ورد في شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ، ووحشي الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق ، وعذوبة المسمع ومما حمل التعسف علي ديباجته ، ثم يذكر ما وقع فيه أبو تمام من كثرة الزحافات التي أثرت علي موسيقي أوزانه الشعرية .

والجزء الرابع : يحلل فيه بإيجاز ما أخطأ فيه البحري مكتفياً من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفي الكثير منها عنه .

والجزء الخامس : يوازن فيه بين الشاعرين في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرهما ويبين أيهما أشعر في ذلك المعني بعينه ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر ، ويذهب إلي أن أهل الحذاقة بكل علم وصناعة يفضلون من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطباع وامتزاج وأن لهذا الميدان رجاله من عنوا بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابس له ، وهو في هذا الرأي متأثر بابن سلام الجمحي ومحتذ حذوه يقول : (فمن سبيل من عرف بكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابس له أن يقضي له بالعلم بالشعر والمعرفة بأغراضه وأن يسلم له الحكم فيه ويقبل منه ما يقوله ويعمل علي تمثله ولا ينازع في شيء من ذلك إذ كان من

(١) الموازنة ص ١١٢ مطبعة محمد علي صبيح .

الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظراً في الخبرة وطول الدربة والملابسة (١)

ويظهر تأثر الأمدي بابن سلام واضحاً حيث يذهب إلي أن نقد الشعر والتصدي للحكم له علي ما سواه لا يكون إلا لمن هو أعلم بالفاظه واستواء نظمه وصحة سبكه ووضع الكلام منه في مواضعه وكثرة مائه ورونته ، إذ كان الشعر لا يحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع هذه الخلال فيه .

ويبدو أن الأمدي لم يكن ينقصه شيء من أدوات الناقد المحترف فهو رجل منصف دارس محقق ، لا يقبل شيئاً بغير بينة ولا يقدم حكماً بغير دليل ، وأما وسائله فهي المعرفة ثم الذوق .

(وهو فيما يبدو لم يكن يجهل شيئاً لا من علوم اللغة العربية وآدابها النقلية فحسب بل ولا من العلوم الفلسفية المستحدثة ، وإن تكن العلوم لم تبهره ولا ضللت أحكامه عن الأدب والشعر) (٢)

ومهما يكن فإن الأمدي في كتابه " الموازنة " كان ناقدًا حاذقاً محيطاً بكل أسرار اللغة ، ودقائق البيان ، فهو حين ينقد البيت من الشعر عند أبي تمام أو البحتري تري عنده دقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع

(١) الموازنة ص ٣٤٥ .

(٢) للنقد المنهجي ص ١١٩ .

ورسوخ العلم ما يسد خطاه ، وأبحاثه التي حفل بها كتابه ، ولا
يمنعنا ذلك من أن نقول : إن الأمدى قد استفاد بأبحاث وآراء من
سبق من النقاد العلماء كابن سلام وابن المعتز وقدامة وغيرهم .

(٥) القاضي الجرجاني

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني ولد في جرجان سنة ٢٩٠ هـ ونشأ بها وكانت موطناً من مواطن الثقافة الإسلامية في بلاد الفرس واشتهر بلقب القاضي .

كانت الدولة الإسلامية في ذلك العهد بأمصارها وحواضرها تزخر بالعلم والعلماء حتى وصلت إلى قمة نضجها العلمي ، فسلك القاضي الجرجاني السبيل التي كان يسلكها الشباب في هذه البيئات العلمية الحافلة وأخذ في دراسة علوم الدين واللغة والأدب ، وأخذ يجوب الأرض ويتنقل في البلدان فزار الشام والعراق والحجاز ، ولقي مشايخ وعلماء عصره واقتبس الكثير من العلوم والمعارف والآداب حتى صار علماً وإماماً .

وللقاضي الجرجاني عدة تصانيف ومؤلفات من أهمها

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه

(٢) تفسير القرآن المجيد

(٣) تهذيب التاريخ

(٤) كتاب في الوكالة وضع فيه أربعة آلاف مسألة

ولم يوجد من هذه الكتب إلا " الوساطة " والباقي لسوء الحظ مفقود وكل ما نعلمه عنها هو ما أورده صاحب كتاب " اليتيمة " عن تهذيب التاريخ أنه تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن

التصرف ، في الانتقادات ويورد الثعالبي فصلين من هذا الكتاب كأنموذج لتأليف الجرجاني في التاريخ .

وقد اشتهر القاضي بالفقه وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء وكان لنضج ثقافته الدينية أثر كبير في توطيد الصلات بينه وبين صاحب بن عباد ، فاستد اختصاصه به وحل منه محلاً بعيداً في رفعتة ، وكان القاضي شاعراً وكاتباً مترسلاً وناقد خبيراً تبادلاً المدح مع صاحب بن عباد وعرف له صاحب فضله فولاه قضاء " الري " وكان بلاط صاحب محط رحال العلماء والشعراء والأدباء وأبناء الفضل وفرسان الشعر ونجوم الأرض إلا أن القاضي الجرجاني كان أثرهم عنده وأقربهم إليه وذلك لعلمه وفضله ومكانته وعلو منزلته وشرف نفسه ومن ثم فقد رفعه إلي منصب " قاضي القضاة " وظل في هذا المنصب إلي أن توفي في الري سنة ٣٩٢ هـ وحمل تابوته إلي جرجان فدفن في حفل مهيب .

إلا أن ابن خلكان صاحب الوفيات يقول : كان ذلك سنة ٣٦٦ هـ وعمره ٧٦ عاماً

ويعد كتاب " الوساطة " من الكتب القيمة في ميدان الأدب والنقد فقد تناول الجرجاني كثيراً من المشكلات الأدبية والنقدية وعرضها عرضاً جيداً ممتعاً أملاه الذوق والطبع والوجدان ، ونلمح في كتابة

الجرجاني فهمه للشعر وتذوقه له ، وبراعته في مجال النقد وقد سار
للساطة أثرها الكبير في هذا المجال ويعدها الباحثون من القدامى
وكذلك المعاصرين من أروع مؤلفات القاضي الجرجاني .

أما منهجه النقدي : فقد سار الجرجاني في وساطته على منهج شديد
في نقده فهو يعرض ما أحسن أو أساء فيه الشاعر ثم يفاضل ويوازن
بينه وبين غيره من الشعراء في المعنى نفسه وهو يهتدي في أحكامه
التي يصدرها ونقده التي يوجهها إلى الذوق المطبوع الذي هذبته
الطيرة الأدبية السليمة وثقافته الدربة والممارسة والمران فيقول :

(وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل
والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ، لست أعني بهذا
كل طبع بل المذهب الذي قد صقله الأدب وشحذته الرواية ، وجلته
الطنة وألهم الفصل بين الردي والجيد وتصور أمثلة الحسن
والقبح) (١)

ونراه يعيب على النقاد وأهل الأدب موقفهم من أبي الطيب المتنبي
فهم ما بين مطنب في تقرظه ، يشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ،
ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، وعائب يروم إزالته عن
رتبته ولا يسلم له بفضلته ، ويرى فيه ذلك الموقف المجافي للصواب

(١) والوساطة ص ٢٥ .

البعيد عن النهج السليم في الحكم علي شاعرية هذا الشاعر وهو في الوقت نفسه ظلم للأدب وظلم في حق المتنبي يقول :

(وما زلت أري أهل الأدب في أبي الطيب بن الحسين المتنبي فئتين : من مطنب في تقيظه ، منقطع إليه بجملته ... يتلقي مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم) ويميل علي من عابه بالزراية والتقصير ويتناول من ينقضه بالاستحقار والتجهيل (وعائب يروم إزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، يحاول حطه في منزلة بواه إياها أدبه فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معايبه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته .

وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وكما أن الانتصار جانب من العدل لا يسده الاعتذار فكذلك الاعتذار جانب هو أولي به من الانتصار ، ومن لم يفرق بينهما وقفت به الملامة بين تفریط المقصر وإسراف المفرط وقد جعل الله لكل شئ قدرا وأقام بين كل حديث فضلا وإذا كانت الخلقة مبنية علي السهو وممزوجة بالنسيان فاستسقاط من عز حاله حيف ، والتحامل علي من وجه إليه ظلم) (١) .

ثم يتحدث القاضي الجرجاني عن ميزان النقد عند العرب وأنه يركز علي عناصر الشعر : من شرف المعني وصحته وجزالة اللفظ

واستقامته وإصابة الغرض دون الاهتمام بالصنعة والجري وراء المحسنات البديعية فيقول : (وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعني وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبدء فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض)

ومن ثم فهو يدعو الشعراء المحدثين إلى اختيار الألفاظ الرقيقة العذبة التي تسمو علي الساقط السوقي ، وتنزل عن البدوي الوحشي منها ، وإلي تنزيل الجزالة والرقّة منازلهما ، بحسب المعني والغرض والموضوع فلا يكن غزله كافتخاره ولا مديحه كوعيده ، لا هزله بمنزلة جده و لا تعريضه مثل تصريحه بل يرتب كلا مرتبته ويوفيه حقه وسواء في ذلك الشعراء والكتاب فيقول :

(وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصود علي الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالشعر دون النثر بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق ، والتهنئة واقتضاء المواصلة ، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت)^(١)

^(١) الوساطة ص ٢٣ وما بعدها

ثم يعود القاضي إلي الحديث عن خصوم المتنبي وأنهم افترقوا فرقتين فرقة تعاديه وتنقصه لأنها تعم بالنقص كل محدث وأخري تخصمه وحده من بين الشعراء المحدثين فتضع من منزلته من حيث ترفع من شأن أبي نواس ومسلم وأبي تمام والبحري وابن الرومي وإضرابهم ونراه ينعي علي من يفضلون الشعر القديم لقدمه ويعودون بالزراية علي الحديث لحداثته وهو في هذا يذكرنا بتلك النظرات التي رأيناها من قبل عند ابن قتيبة .

يقول القاضي : (وما أكثر من تري وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلسة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجده ويعجب منه ويختاره فإذا نسب إلي بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله ، ورأي تلك الغضاضة أهون محملا . وأقل مرزاة من تسليم فضيلة لمحدث ، والإقرار بالإحسان لمولد .

حكى عن اسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : أنشدت الأصمعي :

هل إلي نظرة إليك سبيل	يرو منها الصدي ويشفي العليل
إن ما قل منك يكثر عندي	وكثير ممن تحب القليل

فقال : والله هذا الديباح الخسرواني ! لمن تتشدي ؟ فقلت إنيس
لليلتها ، فقال لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر (^١) .

ويوازن القاضي الجرجاني بين المتبني وكل من : ابن الرومي وأبي
نواس وأبي تمام فنراه يتجاوز الإنصاف في النقد ويعنف في الحكم
ويثور في الخصومة فيري في ابن الرومي الشاعر الذي نقرأ
القصيدة من شعره وهي تنأهز المائة بيت أو تزيد أو تنقص فلا تعثر
فيها إلا بالبيت الذي يروق ويعجب أو البيتين لا يحصل منها السامع
إلا علي تعدد القوافي .

ويتناول شعر أبي تمام فيوضح أنه أحياناً يترقي في الدرج العالية من
الشعر ويتصرف هذا التصرف المعجز ، ثم ينحط إلي الحضيض
ويلصق بالتراب ويقول : إنه ما تكاد قصيدة من شعره تسلم من
أبيات ضعيفة وأخري غثة لا سيما إذا طلب البديع ، وتتبع
العويص)

فإذا ما انتقل إلي الحديث عن أبي نواس ، رأيناه يكبر من شأن
صاحبه المتبني ، ويغض من منزلة أبي نواس ومكانته يقول : (لو
تأمل متأمل شعر أبي نواس ثم وازن بين انحطاطه وارتفاعه لعظم

(^١) هذه رواية الوساطة ص ٤٦ ، أما رواية الأغاني فقال : هذا الديباح الخسرواني ،

هذا الوشي الإسكندرني ، لمن هذا ؟ فقلت له : إنه ابن ليلته ، فتبينت الحسرة في وجهه

وقال : أفسدته أفسدته ، أما إن التوليد فيه لبين .

من قدر صاحبنا المتنبي ما صغر ولأكبر من شأنه ما حقر ، ونعنت أنك لا تري لقديم ولا محدث شعرا أعم اختلالا وأقبح تفاوتًا ، وأبين اضطرابا وأكثر سفسة وأشد سقوطا من شعره هذا ، وهو الشاعر المقدم الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والأصمعي وفسر ديوانه ابن السكيت .

وإذا كانت عيوبه : من غثاثة ورداءة ولحن وخطأ في الوزن واختلال في موسيقى الشعر ، ومن ضعف في العقيدة ، لم تغض من شاعريته ولم تنقص من مكانته فكيف يستساغ هذا المسلك مع أبي الطيب وحده يقول : (والعجب ممن ينقص أبا الطيب ، ويغض من شعره لأبيات وجدها ، تدل علي ضعف في العقيدة ، وفساد المذهب في الديانة) ويختم الجرجاني قوله في هذا المقام ببيان رأيه في العلاقة بين الشعر والدين ويقرر أن الدين بمعزل عن الشعر وأن سوء العقيد لا ينبغي أن يكون سببا لتأخر الشاعر أو الغض من مكانته .